مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد10 / العـدد: 01 (2024)، ص 58- 82

أثار الأزمات الاقتصادية في سلوك وذهنيات الإنسان بالمغرب الأوسط الزياني

The effects of economic crises on human behavior and mentalities in the Zayani Middle Maghreb

بختة خليلي[*1]
[1] جامعة غليزان؛ (الجزائر)، 1bakhta.khelili@univ-relizane.dz

تاريخ القبول: 2023/06/20 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص: هذه الدراسة هي عبارة عن رؤية تاريخية اجتماعية، نتطرق من خلالها إلى محاولة الكشف عن ما خلفته الظروف الاقتصادية من أثار في الحياة الاجتماعية وفي سلوك وذهنيات الإنسان في بلاد المغرب الأوسط، والتي تمثلت أساسا وبشكل واضح في تصاعد منحى الاضطراب الأخلاقي بانتشار الآفات الاجتماعية كالسرقة، والجريمة، والحرابة، والتسول وشيوع الرذيلة، كشرب المحرمات، وتفشي الفواحش بين أفراد مجتمع العصر الوسيط، بالإضافة إلى استفحال خطر الأمراض والأوبئة، وارتفاع الأسعار، فأصبح الناس عاجزين عن تلبية متطلباتهم الضرورية من ناحية، وتوفير الأموال اللازمة من ناحية أخرى، وهذا أمر غير مستغرب لكثرة ما مرت به المنطقة من فتن وحروب لم تبق على شيئا إلا ودمرته، ممَّا انعكس ذلك على سكان المغرب الأوسط وبخاصة الطبقة العامة الفقيرة، التي أصبحت غير قادرة على إعالة أسرها بتوفير الطعام واللباس والعلاج من تلك الأمراض والأوبئة الفتاكة، التي كانت تشكل هاجسا في المخيال الجماعي لأفراد مجتمع المغرب الأوسط، والتي ساهمت بدرجة أكبر في تدهور الوضع الصحي للمستضعفين، وكان سببها في الغالب سوء التغذية وقلة الوعي الصحي وانعدام شروط النظافة وصعوبة الحصول على الأدوية لفقرهم المدقع الأمر الذي اضطرهم إلى اعتماد طرق للاستشفاء والعلاج والتي تنوعت بين ما هو طبيعي وما هو روحاني، الأمر الذي أجبر الإنسان على الهجرة والفرار كسلوك يعكس رغبته في البقاء، فصارع الموت البطيء بكل الوسائل بما فيها الهروب العفوي والمنظم إلى حيث اعتقد النجاة والخلاص، ممَّا انعكس ذلك سلبيا على شلل الوضع الاجتماعي والاقتصادي معا. وعليه سنحاول الكشف عن تلك الآثار الاجتماعية والديمغرافية والنفسية والذهنية للأزمات الاقتصادية على الإنسان، كما يجدر بنا أيضا أن نشير إلى العلاقة بينه وبين استفحال خطر الأمراض والأوبئة داخل مجتمع المغرب الأوسط.

كلمات مفتاحية: الأزمات الاقتصادية.، المغرب الأوسط.، الآثار الاجتماعية.، الكوارث.، الأوبئة.

Abstract: of this study is a socio-historical vision, through which we try to uncover the effects left by economic conditions on social life and on human behavior and mentalities in

* المؤلف المرسل

the countries of the Middle Maghreb, which were mainly and clearly represented direction in the escalation of moral turmoil with the spread of social ills such as theft, crime and militarism beggary and the prevalence of vice, such as drinking forbidden things, and the spread of abominations among the members of medieval society, in addition to the exacerbation of the danger of diseases and epidemics, and the rise in prices, so that people became unable to meet their necessary requirements on the one hand, and to provide the necessary funds on the other hand, and this is not surprising given the abundance of what the region has gone through. Seditions and wars left nothing but destroyed it, which reflected on the population of the Middle Maghreb, especially the poor public class, which became unable to support its families by providing food, clothing, and treatment for those deadly diseases and epidemics that were an obsession in the collective imagination of the members of the Maghreb society, which It contributed more to the deterioration of the health status of the vulnerable, and was mostly caused by malnutrition and lack of is the health awareness, the lack of hygiene conditions, and the difficulty of obtaining medicines due to their extreme poverty, which forced them to adopt methods of hospitalization and treatment, which varied between what is natural and what is spiritual, which forced people to migrate and flee as a behavior that reflects their desire to survive, so they struggled with slow death by all means, including escape. Spontaneous and organized to where I believe salvation and salvation, which reflected negatively on the paralysis of the social and economic situation together, and therefore we will try to reveal those social, demographic, psychological and mental effects of economic crises on man, and we should also point out the relationship between it and the exacerbation of the danger of diseases and epidemics within Moroccan society Middle.

Keywords: economic crises; Central Maghreb; social effects; disasters; epidemics.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

لا يخامرنا شك في أن الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية تفرز آفات اجتماعية وآلاما معنوية، وآثارا نفسية على ذهنية الإنسان، وهو ما عرفه إنسان المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وهذا له ما يبرر من خلال الكشف عن ردود فعله المتباينة، عبر عنها في شكل إفرازات ذهنية وسلوكية، سعيا منه لتجاوز أزماته والحد من خطورتها، فتارة كانت مواجهته لها في صور سلوكات عدوانية، وتارة أخرى تظهر في شكل إفرازات ذهنية واستسلامية مبتغاها التسول أو الانسحاب والهروب من واقع مر أحيانا، أو الصبر والدعاء معا.

1: الآثار الاجتماعية الناتجة عن الأزمات الاقتصادية:

1-1 انتشار الآفات الاجتماعية:

إن الفقر يعد من بين الأسباب المباشرة للانحلال الخلقي، فكثيرا ما يكون السبب في نشوء الجرائم والرذائل وشيوعها (الغزالي، الصفحات 92-93)[1]، وأثبتت الكثير من الدراسات أنه كلما ارتفعت نسبة الفقر ارتفعت نسبة الجريمة والسرقة والتسول، إذ أن الفقر له دور كبير في انخفاض نسبة الوعي الإنساني، مما يؤدي إلى تزايد أعمال العنف والنهب والسلب، وزيادة الفروق بين أفراد المجتمع الواحد، الأمر الذي ساهم في نمو الحقد الطبقي (الغريب، 2005، صفحة 47).

إن الفقير المحروم كثيرا ما يدفعه -بؤسه وحرمانه - وخاصة إذا كان إلى جواره المترفون الناعمون -إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، ولهذا قيل: "صوت المعدة أقوى من صوت الضمير" (القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، 1985، صفحة 15). وقد بين الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام، شدة وطأة الفقر على صاحبه وأثره في سلوكه في قوله: "خذوا العطاء مادام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه، تمنعكم الحاجة والفقر" (الألباني، 1984، صفحة 11)[4] وعليه فمن بين تلك الآفات التي تفشى خطرها داخل مجتمع المغرب الإسلامي نذكر:

- **السرقة والقتل:**

جاءت حركة اللصوصية والسرقة نتيجة التمايز الاجتماعي الذي عرفته بلاد الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة، ولعل ما يشير إلى ذلك شهادة ابن الخطيب في قوله: "كثر التعدي في الطرق والدوابر في السبل، والفتك بالرفاق" (ابن الخطيب، 1956، صفحة 249). وتزايد عدد اللصوص وقطاع الطرق داخل مجتمع المغرب الأوسط بسبب الاضطراب الاجتماعي (الفقر والجوع) والسياسي (ككثرة الفتن والحروب).

ولا سبيل إلى الشك أن شريحة اللصوص وقطاع الطرق زمن المجاعات كانت من أكثر الفئات تضررا بهذا الوضع الكارثي، الذي يملي عليها نمطا حياتيا جديدا، تقل فيه حظوظ الفئة المذكورة في الحصول على الرزق، نظرا لقلة الواردين من التجار والقوافل التجارية بين المدن والبوادي أو بين المدن نفسها (مزدور، 2008، صفحة 218)، تماشيا لقول الحسن الوزان "أما الذين لا يدفع لهم الملك إتاوة فهم يمكثون كي يعتاشوا من قطع الطريق على السابلة" (الوزان، 1983، صفحة 372)، ولا نعدم من القرائن التي تثبت هذا الرأي؛ فابن عذارى في وصفه الدقيق أشار إلى أعمال السرقة التي قام بها عوام الفقراء في الحريق الذي شب في أحد القيصاريات الموحدية بمراكش عام (607هـ/1210م) فكانت البضائع تسرق في وقت كان الناس مهتمين بالإطفاء حسب قوله "واقتحمت النار سفلة الغوغاء وضروب الغرباء فسلبوا بعض ما ألفوه مما سلم من الحريق وتسللوا به كل طريق...، فما طلع الصباح وبقي من أمتعة مراكش ذبالة مصباح" (المراكشي، 1985، صفحة 256)، وهي صورة واضحة تشخص لنا أن الفقر يؤدي إلى السرقة بشتى الطرق، ولعل قول الوزان يزكي هذا الطرح "قطاع الطرق الذين يغتالون الناس بلا رحمة" (الوزان، 1983، صفحة 384).

في حين أشار المازوني في إحدى نوازله التي أستفتي فيها عن رجل التقى بلصوص حاملين ثورا ففكه لهم واستأمنه عند رجل مشهور بالدين والأخلاق حتى يأتي صاحبه

ويأخذه (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، 2009، صفحة 125) ومما عزز الطرح أكثر شهادة صاحب التشوف في إحدى النصوص مشيرا إلى السرقة في قوله "أخبرني مخبر بأن أبي سليمان داود بن الايلاني (ت:607هـ) بات ليلة عند أحد أصحابه، فجاءه سارق فنقب الجدار وسرق له بعض متاعه، فحكى مصيبته للتادلي في قوله: "سرقت الليلة ونقب السارق جدار داري" (التادلي، 1997، صفحة 415) فدعا التادلي على السارق.

وبالمثل تطرق صاحب الدرر في نص آخر إلى السرقة في قوله "سئل ابن مرزوق عمن دفع لرجل دراهم يشتري بها برنسا من غير بلادهما فدفع له الدراهم واشترى البرنوس بمحضر عدول وجاء به فوصله لربه فسلبه في أثناء الطريق مع بعض متاع له" (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، 2009، صفحة 213).

ونظرا لأن السرقة كانت منتشرة بكثرة كانت ترد إلى الفقهاء بعض النوازل بشأن الحكم فيها فعلى سبيل المثال نجد في إحدى النوازل عند صاحب الدرر أنه سئل عن السراق وأشباههم إذا وجدوا في أرض لا تقطع فيها يد فما الحكم فيها؟ فكان جواب الفقيه بأن سارق اليوم إنما الحكم عليه هو مثل حكم المحارب (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، 2009، صفحة 371).

وقد لا نجانب الصواب إن تلمسنا بين ثنايا هذه النصوص وما تحمله من صور للسرقة والقتل والسلب والنهب وفعل المنكر وما انجر عنها من مساوئ بسبب شدة الفقر، الذي أدى بإنسان المغرب الأوسط إلى التخلي عن قيمه الأخلاقية والإنسانية لأجل اغتنام بعض المكتسبات المادية من أموال وأغذية وألبسة.

يبدو أن نص العبدري يعزز الطرح أكثر من خلال شهادته عند اجتيازه مدينة تلمسان واصفا إياها "لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره، وطلائعهم أبدا على مرقب، لا يخلوا منها البتة" (العبدري، 2005، صفحة 45) أما عن مدينة باجة فيقول: "قد هتكتها الأيدي العادية، وفتكت فيها الخطوب المتمادية، حتى صارت وهي حاضرة بادية، وقد حدثت أن أهلها لا يفارقون السور خوفا

من العربان وأنهم مستعدون لدفن الجنائز كما يستعد ليوم الضراب والطعان" (العبدري، 2005، صفحة 105).

كما يصف لنا في موضع آخر من خلال رحلته التي مر فيها بالمغرب الأوسط، ظاهرة السطو وقطع الطريق، إذ لم يستطع الخروج من تلمسان- وهي في حال الشدة– حتى يجد صحبة يستند عليها، نظرا لهول وصعوبة المسلك الرابط بين تلمسان وبين رباط تازة المليء بقطاع الطرق، ما وصفهم بأقبح الوصف قائلا: "ثم وصلنا إلى تلمسان نيتي أن أقيم بها مدة حتى أجد صحبة قوية أقطع معها المفازة التي في طريقها إلى رباط تازة، وهي منقطعة موحشة لا تخلو من قطاع الطرق البتة، وهم بها أشد خلق الله ضررا وأكثرهم جرأة وأقلهم حياء ومروءة، لا يستقلون القليل ولا يعفون عن ابن السبيل، ليس في أصناف القطاع أحسن منهم هممًا، ولا أوضع منهم نفوسا، ولا أكثر منهم إقداما على كل صالح وطالح، ولا ينبغي لمسلم أن يغرر بلقائهم" (العبدري، 2005، صفحة 563).

وقد أشار ابن الشماع إلى أحكام الحرابة في نهاية كتابه في قوله" وإذا أخاف المحاربون السبيل، وقطعوا الطريق وجب على المسلمين التعاون على قتالهم من غير أن يدعوهم الإمام – إن كان- ويجب على جميع المسلمين التعاون عليهم وكفهم عن إذاية المسلمين..." (ابن الشماع، 1984، صفحة 135).

- **التسول**

هو ظاهرة اجتماعية يمارسها أفراد أو أسر، إما للحاجة الشديدة، أو هربا من مسؤوليات الحياة، خاصة بالنسبة للأشخاص الذين ليس لهم رغبة في مزاولة الأعمال، ويؤثر التسول على الاقتصاد، كون المتسولين طاقة بشرية معطلة وغير منتجة، كما أنه سلوك منحرف، مكروه في الشرع (ماهر، 2003، صفحة 303). وانتشار هذه الظاهرة هو أثر من آثار الفقر، فالفرد يمارسها لأجل الحصول على الكسب من أي طريق حتى وإن كان التسول (رشوان، 2002، صفحة 157).

وهناك من جعل من المتسولة مقياس ونموذج ليفاضل به بين حالي فاس وتلمسان، وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن خلدون مبينا من خلال ذلك إلى الحال السيئ الذي آل إليه وضعهم في هذه الأخيرة كما هو في وهران على حد قوله "...مثلا بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى، مثل بجاية وتلمسان وسبتة، تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة، ...وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما..." (ابن خلدون، 2012، صفحة 343). فالمتسولة في طرحه هذا يختلفون في مطالبهم باختلاف الأمصار في العمران، وما يبرر تفسيره في شأن المتسولة قوله "فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤَال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية" (ابن خلدون، 2012، صفحة 343)، في حين يختلف السؤَال في تلمسان ونوعية مطالبهم على حد تعبيره "ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لا ستنكر وعنف وزجر" (ابن خلدون، 2012، صفحة 343).

ينتمي معظم المتسولة إلى أصول اجتماعية فقيرة، نشأت عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المغرب الأوسط منذ حوالي القرن (8هـ/14م) على الأقل. ثم عن الأزمات الكثيرة والمتعددة التي عرفتها البلاد بعد ذلك، من ارتفاع للأسعار وقحط وجفاف ومجاعات إذ ما قوبل بمظاهر الترف والدعة والملذات التي أفرغت بيت المال واستدعى جباية شديدة أثقلت كاهل العامة بكل شرائحها، والتي لم تسمح لأي جهة بتطويقها والحد منها بشكل فعال (استيتو، 2006م، صفحة 37).

بناء على ذلك نعتقد أن شريحة المتسولين، لم تكن سوى إفراز لهذه المعطيات، وانعكاس للتمايز الاجتماعي الذي تمخض عنه بروز تناقضات اجتماعية، وقطاعات غير قادرة على تحصيل عيشها عاجزة عن الاندماج في عملية الإنتاج (بوتشيش، 2014، صفحة 216).

- **التفكك الأسري:**

يبدو أنه إذا تعذرت سبل العيش الكريم، وتفاقمت حالة العوز والحرمان فإن بعض النساء لم يترددن في بيع أعراضهن وأجسادهن، في أحضان الدعارة والبغاء، لتصريف أزمتهن (استيتو، 2006م، صفحة 232) داخل المجتمع نتيجة الحاجة، وذلك ما عبر عنه الوزان في قوله "وأخيرا فإن البؤس الذي يفتك بفقراء الشعب في تونس يؤدي إلى اضطرار الكثير من النساء إلى أن يأكلن بأثدائهن بثمن بخس، والكثير من الغلمان إلى التخنث، وهؤلاء الغلمان هم أكثر دناءة وأفحش وقاحة، وأشد فجورا من النساء المومسات" (الوزان، 1983، صفحة 450). وبالمثل كان بعض النساء المعوزات يلجأن إلى التحايل والتسكع لكسب المال (حسن، 1999، صفحة 635).

وفي مقام آخر يشير صاحب الدرر إلى هروب النسوة مع أزواج آخرين غير أزواجهم مقابل مبلغا من المال حسب ما ورد في إحدى النوازل إذ سئل المشدالي "عن امرأة هربت من زوجها مع آخر إلى موضع ما، ويمتنع فيه بها فإذا كرهها زوجها أو أيأس منها طلب الهارب به بمال يعطيه فيطلقها زوجها إياه" (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، 2009، صفحة 247).

ولعل ما يؤكد الطرح أكثر هو امتهان بعض النسوة المهن المنحطة بغية الحصول على المال، تمثلت في عمل النساء المفسدات في بيوت الدعارة والمنكرات (كررزا، 2015/2014، صفحة 198).

وفي استمرار ضغط العوز والحاجة على الحياة الأسرية نراه ربما غلبت الدوافع الأخلاقية ففرقت بين المرء وزوجه على كره منها أو كره منه، وكانت طلبات الزوجات التي لا تنتهي بعدم قدرة الأزواج مجاراة زوجاتهم في طلباتهن سببا آخر لبث جو من التوتر وعدم الانسجام بين الزوجين (القرطبي، صفحة 34)، كما وضحته هذه النازلة "بخلاف الزوجين بسبب النفقة على الأولاد فقد أكثرت الشكية إحدى النساء إلى القاضي أبو الفضل العقباني بأن زوجها يتركها بلا نفقة فلما رفعت أمرها للقاضي هجرها زوجها

وقطع نفسه عليها" (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، 2009، صفحة 385). وهو ما جعل الكثير من الفقهاء إجازة التطليق بسبب الإعسار وعدم القدرة على الإنفاق.

كما كان الفقر من أكبر الموانع التي تحول بين الشباب وبين الزواج، وإتمام نصف دينهم وذلك لكبر أعباء المهر والنفقة، وما يشترطونه أهل العروس من صداق وهدايا وغيرها من اللوازم الثمينة، ولأن الكثيرين لم يمتلكوا القدرة على تأمين تكاليف الزواج وكان هذا سببا في منعهم عنه أو تأجيله (القرطبي، صفحة 242).

- **شيوع ظاهرة الرشوة وتعاطي الخمور**

لاشك أن ظاهرة تعاطي الخمور وشرب المحرمات ليس بأقل حدة عن تأثير الظواهر الأخرى، فقد كانت أحيانا ذريعة أو ملجأ لبعض الأشخاص الغير قادرين على تحمل مسؤولية العائلة بالنفقة عليهم وتوفير ما يحتاجونه من أكل وشرب ولباس، فيتخذون من ظاهرة شرب الخمر كعامل لنسيان الهم والحزن والبؤس، ولعل ما زاد الطين بلة انتشار مجالس اللهو والطرب والغناء والمجون خلال هذه الفترة (الأندلسي، 1995، صفحة 367).

كما تأصلت عدة ظواهر أخرى في المجتمع، كشيوع الغش والرشوة والتدليس وطغيان الظلم إذ الكثير من الفقراء المحتاجين تعرضوا للظلم بهتك حقوقهم بسبب غياب العدالة وكذا لجوء الكثير من أصحاب النفوذ وذوي السلطة إلى تقديم المال كرشوة لقضاء حوائجهم وإقصاء الفقراء من طريقهم.

على أن أبرز نص ما أورده المازوني في وصفه للضعف الذي حل بالبلاد والعلماء نتيجة الفساد في قوله" سيدي إن حال بلادنا كما علمت من كثرة فسادها وعدم جريان الأحكام الشرعية فيها يقع بالرجل من نازلة يقض الحكم فيها كالحديث في المشهور من المذهب، كالحنث بالأيمان اللازمة" (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، 2009، صفحة 41).

2-1 استفحال خطر الأمراض والأوبئة:

تنوعت وتعددت الأمراض التي انتشرت خلال فترة مدار البحث ببلاد المغرب الأوسط وصعب تصنيفها، وذلك لعدم وجود حدود دقيقة وواضحة بين الأمراض، ولكن ورغم ذلك رفعنا على الأقل صنفين ظاهرين: الأمراض العضوية (organiques) والأمراض العضوية الروحية أو الجسدية النفسية (organiques-spirituelles) وهذا النوع الأخير تعود أسبابه إلى ظاهرة خارقة وطبيعية (شيطان، سحر، عين خبيثة...) ليس للإنسان عليها سيطرة ولا قدرة حسب الاعتقاد السائد (بن حتيرة، 2008، الصفحات 255-256).

حسبما جاء في الكثير من المصادر الطبية فإن مقدرة المحتاجين على الوصول إلى الخدمات الصحية الكافية تنخفض باستمرار، والسبب يرجع إلى ارتفاع تكلفة الخدمات الصحية وإلى عامل الأمية والجهل الغالب على الطبقة العامة، الأمر الذي نتج عنه تفشي الأمراض المعدية والمزمنة في الأوساط العامة، وتعتبر بعض الأمراض التي ظهرت خلال فترة مدار الدراسة مثل داء النسا (بوزلوم) وداء السل كلها من أمراض الفقر والبؤس والجهل، نظرا لارتباطهما بانعدام الوعي الصحي، ونقص التغذية، وسوء الأحوال المعيشية بصفة عامة مثل عدم وجود المساكن الملائمة والعيش في البيوت القصديرية، وتلوث الهواء وعدم وجود مياه نقية للشرب لذلك فالمدن التي" غلب على أهلها... شرب المياه الراكدة في بطون الأودية والمارة بالغياض والآجام، فان أمزجتهم تكون أتم استعداد للتأثر،... وكذلك أرباب المياه الكبريتية، والتي فيها حدة كسكان الحامات" (بن حمادة، 2007، صفحة 117)، فضلا عن شربهم من ماء الخزانات العكر (فقادي، 1999، صفحة 45)، أما الأسباب البشرية فيتمثل أخطرها في طرح النفايات الصلبة والسائلة في المجاري المائية، بفعل عدم توفر الدور والأحياء على المراحيض وشبكة الصرف الصحي في تلك الفترة (بن حمادة، 2007، صفحة 117).

اعتبرت الأمراض المستعصية من بين الآفات التي هددت الإنسان خلال هذه الفترة لما كان لها من تأثير واضح على البنية الديمغرافية، وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان ومما زاد من حدتها عدم تطور الطب بالشكل الذي يتيح محاربة هذه الأمراض والأوبئة الفتاكة، أو على الأقل التقليل من خطرها.

لقد كان الفضل لكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، الذي قام بعملية مسح لمختلف الأمراض التي تفشى خطرها ببلاد المغرب الإسلامي محاولا تفسير أسبابها. فمن الأمراض التي ظهرت نتيجة قلة الرعاية الصحية نذكر: الجلوس على الأرض في فصل الشتاء الذي كان يسبب أحيانا لذوي المزاج الدموي سعالا قويا وأليما ويذكر الوزان أن هذا المرض السعال كان ينتقل بين الأشخاص خاصة عند ملاقاتهم في المساجد يوم الجمعة للصلاة، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين سعل آخر ثم آخر حتى يسعل الجميع (الوزان، 1983، الصفحات 39-94).

كما كثر خلال هذه الفترة مرض ألم النَسَا (بوزلوم) والركب بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل وهو أمر يفسر شدة الفقر المدقع الذي كانوا يعيشونه، وانتشر كذلك مرض الجرب الذي يصعب التخلص منه (الوزان، 1983، الصفحات 95-96).

علاوة على ذلك كان استفحال الأمراض الجلدية بين سكان المغرب الأوسط بدرجة كبيرة، والتي يكون سبب حدوثها في الغالب تلوث مكان تواجد المياه أو سوء التغذية المتناولة أو غياب النظافة في كل من المأوى واللباس والفراش وهذا بالطبع ما ينطبق وحياة الفقراء ومعاناتهم من نقص في الإمكانيات المادية التي يحتاجونها للوقاية الصحية من هذه الأمراض. التي غالبا ما تكون مستعصية وفتاكة لا يمكن الشفاء منها إلا بمعجزة أو كرامة (الاشبيلي، 2007، صفحة 109). ومن بين هذه الأمراض الجلدية التي كانت منتشرة في بلاد المغرب الإسلامي نجد "مرض القرع" الذي يصيب رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات وكان الشفاء منه أمر صعبا (الوزان، 1983، صفحة 95)، بالإضافة إلى

مرض الجرب الذي كان منتشرا بكثرة، ومرض الهاق والبرص، والدماميل، وكان منتشرا أيضا مرض الذبحة والسعال الديكي، الذي يسببه الجلوس على الأرض، بالإضافة إلى أمراض البرد (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج1، 2009، صفحة 325) كالزكام والسعال (ابن مرزوق، 2008، صفحة 234).

كما كان للحشرات والقوارض دور الوسيط ما بين نقل الأمراض المنتشرة إلى جسم الإنسان، فهناك عدة داءات تصيب القوارض وبعض الحيوانات الداجنة ومصدرها الرئيسي القوارض البرية: الجرذان والفئران المائية والأرانب، فئران الحقول، السنجاب (بوكرديمي، 2010، صفحة 26)، بحيث تعيش هذه الأمراض في جسم هذه القوارض وتتكاثر، ثم تخرج عن طريق الروث وبول الحيوان، وتنتقل من الحيوان إلى الحيوان عن طريق الماء، والطعام، وبول وبزاز الحيوان المصاب ولحم الجثث المريضة والحشرات اللاذعة كالبعوض والذباب، بحيث تصبح البراغيث عبارة عن وسيط ناقل للمرض من الفئران إلى الفئران، ومن الفئران إلى البشر وذلك على سبيل المثال حالات انتشار مرض الطاعون الأسود الذي ظهر أولا بآسيا الوسطى، ثم انتقل إلى أروبا وبقية البلاد المتوسطية عن طريق البحر (فتحة، 2011، صفحة 89).

ولم تكن الأمراض تشكل الخطر الوحيد لسكان مجتمع المغرب الأوسط، وإنما عانى هذا المجتمع عددا من الأوبئة والطواعين الفتاكة زادت الفقراء المحتاجين تذمرا وبؤسا في حياتهم اليومية، وبالرغم من أن الأوبئة والطواعين تعتبر من الآفات السماوية أو العاهات التي لا دخل للإنسان فيها (المقريزي، 2007، صفحة 115)، إلا أن حدوثها في بعض المرات يكون نتيجة عوامل مناخية وطبيعية مثل: تعاقب المجاعات وغلاء الأسعار وانعدام الأقوات والغلال، وإتباع الناس نمطا غذائيا صعبا يكون في معظمه ناقصا لشروط الصحة (ابن خلدون، 2012، صفحة 288)، لأن مبتغاهم الأساسي هو سد رمق الجوع على حد قول ابن زهر "...اضطرار الناس إلى أكل الحبوب المتعفنة والفاسدة إما أن تكون

رديئة في جوهرها، أو بقدمها من طول الاختزان في المطامير، وكذا أكلهم للحوم الرديئة" (الاشبيلي، 2007، صفحة 459) كلحم الجيفة وغيرها من اللحوم المحرمة على الإنسان مثل لحوم الفئران والكلاب وأكلهم للنباتات البرية، وبعض الأغذية الغريبة التي لم يعتادوا على أكلها إلا بسبب الجوع والفقر (العاملي، 2010، صفحة 209).

كما تحدث الأوبئة أيضا نتيجة شرب الناس للمياه القذرة والراكدة في البرك وذلك لانعدام المياه الصالحة للشرب بسبب القحوط الشديدة، والجفاف الحاصل في كثير من الأحيان الأمر الذي يؤدي إلى احتمال ظهور الوباء بين الناس وانتشاره بسرعة (بن حمادة، 2007، صفحة 187)، وذلك ما يؤكده أبو مروان عبد الملك بن زهر عن المياه "فإنها إن كانت مياها راكدة متغيرة حتى تنتن وتكون عكرة مما تحتها من الحمأة والأقذار، فإنها قد يكون عنها بما ذكرته من الوباء بالحميات الدقية... وبالأورام الطاعونية" (الاشبيلي، 2007، صفحة 453).

3-1 حرمان الطبقات الفقيرة من العلاج الطبي:

وكان الأطباء يدعون دائما إلى ضرورة حفظ الصحة والوقاية من الأمراض قبل الوقوع فيها، لأن ذلك أهم بكثير من المداواة والعلاج وما يثبت ذلك أن أول ما افتتح به الطبيب أبو مروان بن عبد الملك بن زهر كتابه "التيسير في المداواة والتدبير" قوله"...وبعد فإنني ملبي بامتثال الأمر العزيز في تصنيف علاجات... وأبدأ في ذلك إن شاء الله بما يحفظ الصحة" (الاشبيلي، 2007، صفحة 50)، وهو ما يفهم أن بن زهر أعطى أهمية كبيرة للعمل الوقائي عن طريق توفير الأغذية بإتباع نظام غذائي يلائم كل فصل من فصول السنة ويكون موافقا لأعمار الناس وأجناسهم، فضلا عن توفير الأدوية وتدبير ما لابد من تدبيره كنظافة الحمامات (بن حمادة، 2007، صفحة 223)، التي حرص الفقهاء والأطباء على ضرورة نظافتها والحفاظ عليها، فشددوا على مراقبتها لكونها أهم مكان يلجأ إليه عامة الناس للاغتسال فاشترطوا على المشرفين عليها أن يبيتوا محاكهم التي يحكون بها أرجل الناس في الماء والملح (سانشت، 1994، صفحة 193)، كما لابد من مراعاة تغير المناخ

حسب الفصول والسنوات، في إطار ما يعرف في النسق المفهومي الطبي بـ "الأمور الضرورية" و"الأمور غير طبيعية" التي تتوقف عليها المعرفة النظرية بشؤون الصحة (بن حمادة، 2007، صفحة 225).

ارتبط العلاج والتداوي لأفراد مجتمع المغرب الأوسط بمستواهم المعيشي، أي بحسب تقسيماتهم الطبقية داخل المجتمع -الخاصة الثرية والطبقة العامة الفقيرة –فثراء الطبقة الخاصة الأرستقراطية ساعدها على الاحتكاك بالأطباء المهرة الذين كانوا يتقاضون أجرة كبيرة مقابل الخدمات الطبية التي كانوا يقدمونها للمرضى (زرهوني، صفحة 62)، في حين نجد الفئات الفقيرة الهزيلة الدخل لا تستطيع دفع أجرة الطبيب الواحد، على أن أبرز مثال لذلك ما أورده ابن بسام عن رجل يساوم طبيبا في الأجر الذي طلب منه دفعه مقابل الكشف عنه طبيا:

عَجِبْتُ لِذِي سقَّم مُعْضِل   يَسُوم الطَّبيبَ وَيكْدِي عَليَهِ
ظُنُ عَلَيْهِ بِدِينَارِهِ   وَيجْعَل مَهْجَتهِ فِي يَدِهِ

(الشنتريني، 1997، صفحة 905)

وهذا لا يعني أن كل الأطباء كانوا لا يقدمون خدماتهم للطبقة العامة، بل كان هناك أطباء يراعون الظروف المادية أحيانا للمعوزين ويعالجونهم مجانا (زرهوني، صفحة 62)، غير أن الكثير من الأسر الفقيرة والمحتاجة ألجأتهم الضرورة المادية والاعتقاد الجازم في نجاعة الطب الشعبي، ففضلوا الاستشفاء بالأعشاب والعقاقير، فضلا عن اللجوء إلى الأولياء والمتصوفة وزيارة قبور الموتى لعلاج الأمراض المستعصية (بوتيشيش، 1993، صفحة 102).

كما كان لكثرة الأمراض، وقلة مدخول السواد الأعظم من الرعية، فضلا عن عجز الأطباء عن معالجة بعض الأمراض كالطواعين، جعل طرق الاستشفاء البدائية تعرف رواجا كبيرا، لا في البادية فحسب بل في الحواضر نفسها (ابن خلدون، 2012، صفحة

491)، حيث شاع الاعتقاد في الطب الروحاني فالتجأ المرضى إلى الأولياء والصلحاء طمعا في بركتهم وشفائهم (بوتيشيش، 1993، الصفحات 103-104) بدلا من الأدوية المركبة التي يصفها الأطباء لمرضاهم.

2- الانعكاسات الديمغرافية:

تعتبر الانعكاسات الديمغرافية كالوفيات والهجرة الكثيفة للسكان أحداث غير عادية تضرب بعمق، وتهلك السكان، وتخلف بصمات حالكة في الأذهان، وفي الذاكرة الجماعية للسكان (حالي، 2013 ، صفحة 25)، ويمكن للكوارث الديمغرافية أن تكون ناجمة عن الأزمات الاقتصادية الذي طالما شكلت هاجسا كبيرا على سكان بلاد المغرب الإسلامي لجسامة نتائجها.

2-1 الوفيات:

الظاهر أنه كان للأزمات الاقتصادية بالمغرب الأوسط من مجاعات وأوبئة وأمراض وفتن وحروب واستغلال جبائي خلال فترة مدار البحث، إسهام في تدهور المنحى الديمغرافي وتراجعه، والشيء المؤسف أن المصادر لم تعطينا صورة واضحة المعالم عن حجم الكوارث الديمغرافية والخسائر البشرية الناتجة عنها، فرغم البحث الجاد بين طيات المصادر المختلفة لم نصادف وثائق أو أرقام إحصائية يمكن من خلالها وضع جداول أو دوائر نسبية تخص الوفيات أو الهجرة، وهو ما سبب لنا عجزا كبيرا في محاولة إحصاء عدد الوفيات، وذلك لأن المسلمين سواء في المشرق الإسلامي أو الغرب الإسلامي، لم يهتموا بضبط تواريخ الأحداث السكانية وكرونولوجيتها، إذ لم يكن الوعي بتدوين المعطيات السكانية لذاتها أو لأغراض إحصائية حاضرا لديهم (حالي، 2013 ، صفحة 4) عكس الديمغرافيا المعاصرة التي ترجمت كل أحداثها بلغة الأرقام.

إذا كان الوصف الكيفي لأزمة الوفيات أو الهجرات يبدو سهلا، فإنه يصعب تناولها كميا، لمعرفة مختلف مظاهرها وانعكاساتها الديمغرافية، ذلك أن الأمر يتطلب معرفة ليس عدد الوفيات فقط، ولكن عدد الأحياء أيضا، ومن هنا فان نسبة الوفيات إلى

الأحياء هي وحدها الكفيلة بتحديد مدى هول الكارثة التي أصابت الساكنة المعنية (حالي، 2013 ، صفحة 25).

وغني عن البيان أن الموت لم يعرف التفريق بين غني وفقير، ولم يأخذ معيار التفاوت الطبقي كمعطى لأخذ أحدهما دون الآخر، لكن مما لاشك فيه أن ظروف وطرق عيش الإنسان الفقير في الزمن المألوف أو وقت الأزمات والكوارث الطبيعية كانت تختلف عن تلك الظروف التي يحياها أصحاب القصور والطبقة الراقية، الأمر الذي أدى إلى كثرة الوفيات في أوساط الطبقة العامة بسبب سوء التغذية ومحدودية إمكانياتهم المادية.

ولا شك أن تفشي وباء الطاعون الأسود سنتي (748-749هـ/1348-1349م) ساهم إلى حد كبير في تفاقم الانهيار الديمغرافي، وهذا ما عبر عنه أحد المؤرخين "فلا ترى متصرفا إلا في علاج، أو عيادة مريض، آخذا في جهز ميت، أو تشييع جنازة أو انصراف من دفن. وكان الضعفاء يجتمعون إلى باب سلم–أحد أبواب القيروان– فتحفر لهم أخاديد ويدفن المائة والأكثر في الأخدود الواحد، فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم تعالى، وخلت المساجد بمدينة القيروان، وتعطلت الأفران والحمامات... وقيل أن أهل البادية أكل بعضهم بعضا" (بن حتيرة، 2008، صفحة 262).

وعموما يمكن القول أن النزيف الديمغرافي كان من بين أثار الأزمات الاقتصادية، وربما كانت نتائجه أشد في صفوف شريحة العوام التي تمثل قاعدة هرم المجتمع، ذلك أنه من سلم من الهلاك عاش محنة التضرر جوعا، فضلا عن وجود القابلية لاستفحال الأمراض والأوبئة، مع العلم أن وضعهم الاجتماعي كان منحطا ودخلهم ضعيفا، لا يسمح بتلبية حاجاتهم من الأقوات التي ارتفعت أسعارها، بحيث لا يمكنهم تغطية مصاريف العلاج، مما أقبل بعضهم على اقتناء أطعمة شاذة ومضرة بالصحة (بوتيشش، 2013، صفحة 33).

2-2 الفرار والهجرة:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط تحركات بشرية متقلبة شديدة التنوع (القبلي، 1992، صفحة 47)، هذه الأصناف من التنقلات يمكن إدراجها ضمن التحركات البشرية الاختيارية أو الطوعية. وعليه يمكن أن ندرج عامل الأزمات كسبب مهم في الهجرة الاضطرارية للسكان ونزوحهم عن ديارهم إلى مناطق أكثر أمانا ووفرة، لاسيما إذا ما اقترنت الأزمات الاقتصادية بأثر التحولات الطبيعية، وإن كنا لا نتوفر على معطيات رقمية، فإن كل القرائن تدل على ما ذهبنا إليه، من ذلك أن كثرة الكوارث من قحوط وسيول ومجاعات وأوبئة تزامنت مع مرحلة انتقالية اشتدت فيها الحروب بين الكيانات السياسية الثلاثة، مما زاد من معاناة أهالي المناطق التي كانت فيها وطأة المجاعة شديدة وبالتالي هجرتهم. ومن الأمثلة البارزة على ذلك شهادة الوزان في قوله "...فإن المجاعة التي سادت في السنوات الأخيرة في إفريقيا قد أرهقتهم كل الإرهاق حتى أصبح هؤلاء الفقراء يهاجرون بمحض إرادتهم" (الوزان، 1983، صفحة 74).

وأدى عامل الهجرة إلى التراجع الحضري كما وصفه ابن خلدون في قوله "والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران" (ابن خلدون، 2012، صفحة 152)، وضرب لنا مثلا عن هجرة بني هلال لبلاد المغرب في قوله "وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها، بعد أن كان كله عمرانا" (ابن خلدون، 2012، صفحة 152).

ومن النماذج الأخرى التي أوردتها مظان الفترة بالمغرب الأوسط، عن الفرار والهجرة نحو المجهول، تلك القضايا والنوازل الفقهية الشائكة التي كانت ترد على الفقهاء أحيانا سائلين الحكم فيها، "فقد سئل عبد الرحمن الوغليسي عن فقير ألجأته الحاجة إلى السفر وكان عليه دين كبير ولم يترك لزوجته مالا، ولا يعلم الناس هل هو حي أم ميت؛ فهل تستحق زوجته الزكاة، فكان جواب الفقيه بإعطائها الزكاة إن كانت على الحالة المذكورة" (المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج1، 2009، صفحة 341).

كما وردت نازلة أخرى بخصوص هذا الشأن، "فقد سئل أبو الفضل العقباني عن هجرة وفرار فتاة مهملة بكر يتيمة زمن المسغبة إلى وطن غير وطنها، فتزوجها شيخ من ذلك الوطن بغير ولي وهي كارهة له" (الوزان، 1983، صفحة 145).

ويتضح أن هذا التلازم المتتابع الذي يشد بعضه بعضا بين كل من الجوع والمرض والوباء والفقر، هو تلازم تصاعدي، كان يزيد من إرهاصات الخوف لدى الإنسان الذي سارع إلى الهجرة والفرار نحو مصير مبهم، كلما لاحت هواجس أي ظاهرة من هذه الظواهر ببيئته الاجتماعية. وقد خلفت هذه الهجرة نتائج بعيدة الغور تتجلى أساسا في تغيير الخريطة البشرية ومواطن الاستقرار، وتعمير مناطق فارغة وإخلاء مناطق أخرى من ساكنيها.

3- الانعكاسات النفسية والذهنية:

3-1 الانسياق وراء الدجل والخرافات:

تركت ظاهرة نقص وانعدام الغذاء والإصابة ببعض الأمراض والأوبئة كالطواعين أثارا نفسية على الفئات المستضعفة، فأصبحوا يتشبثون بدجل وخرافات المنجمين أملا في تغيير أوضاعهم السيئة خاصة أثناء فترات الأزمات الاقتصادية.

وكيفما كان الحال فقد استسلم هؤلاء العوام أمام فئة المشعوذين والدجالين، بما أظهروه من تأثير للطلاسم السحرية أمامهم وإقناعهم بتحقيق أحلامهم، دونما تفكير أو معارضة ومثال ذلك ما أورده الوزان "ويبيعون للجمهور الجاهل أوراقا صغيرة كتب عليها كلمات ووصفات ضد مختلف الأوجاع كما يزعمون" (الوزان، 1983، صفحة 279).

ويبدو أن ابن خلدون تنبه إلى تشبث واقتناع الناس بأحكام التنجيم والسحر والعرافة، ودَونَها في مقدمته، موضحا في ذلك أن الذي يؤدي بالإنسان على الانصياع والتوجه لذلك الأمر في الغالب هو "التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم، من حياة وموت، وخير وشر" (ابن خلدون، 2012، صفحة 250).

ومما زاد من تمسك الفئات الدنيا بالمشعوذين والدجالين، إسهام الطبقة المثقفة عن قصد أو عن غير قصد في تشجيع الذهنية الساذجة، من خلال التنظير والتقعيد للفكر التنجيمي، فاتسعت بذلك دائرة التعليل الخرافي للعوام (البياض، 2008، صفحة 139)، فكانت "سذاجاتهم تجعلهم يصدقون كل شيء مهما كان مستحيلا، لأن العامة تجهل نواميس الطبيعة جهلا تاما" (الوزان، 1983، صفحة 70).

2-3 اللجوء إلى بعض الطقوس الاشفائية:

يبدو أنه كان لعجز العديد من الناس عن دفع أجرة الطبيب لأجل التداوي يؤدي بهم إلى البحث عن سبل أخرى للعلاج مهما كان نوعها، فكانوا يلجئون إلى الأولياء كأطباء لهم، خاصة بالقرى و المداشر النائية البعيدة عن المدن، ومن العلاج الذي استهوى شريحة العوام العلاج بالتمائم والعزائم رغم أنه كان ممنوعا لاتصاله بأمور السحر والشعوذة، وكذا العلاج بالرقية (ابن منظور، الصفحات 209-210).

وكثيرا هي الأمثلة عن لجوء هؤلاء العامة إلى التبرك بالصلحاء والأولياء بالمغرب الأوسط، إما رجاء في الاستشفاء أو لقضاء أغراض دنيوية، لذلك كانت قبورهم مزرات للاستشفاء من بعض الأسقام، كما أن تراب هذه القبور كان بالنسبة إليهم من أهم الآثار التي يستعملونها لعلاج العديد من الأمراض ومن الأمثلة على ذلك: ضريح الولي أبي سعيد الشريف الحسني كان مزارا للمرضى لطلب الشفاء "وما زاره ذو عاهة إلا وبرئ" (المليتي، 2001، صفحة 148).

وكان للعلاج بالتمائم والعزائم مكان في مجتمع المغرب الأوسط فبعض الناس ألحقوها بالرقية لما فيها من القرآن والدعاء، ولعل ما يدل على ذلك كتاب ابن سلامة البسكري؛ الذي أدرج مثل هذه الطقوس ضمن منظومة العلاج الديني القائم على القرآن، فقد كان يكتب للمريض بعض الأوراق تحتوي على آيات قرآنية ويجعل معها أعشابا وتوضع في خرقة ويعلقها المريض ويبرأ منها ببركة القرآن (مزدور، 2008، صفحة 186).

4- الآثار العلمية:

4-1 انتشار الجهل والأمية:

لقد ربط ابن خلدون بين العلم والفكر وتحصيل المعاش في قوله "إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانته من الحس والحركة والغذاء، والسكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصنائع وتحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغبا في تحصيل ما ليس عنده" (ابن خلدون، 2012، صفحة 341). وبذلك فإن الفكر يهدي إلى ابتكار صنائع وحرف تغني صاحبه عن السؤال، فإذا ما حاولنا قلب هذه المعادلة استنتجنا أن هاجس انتشار الأمية والجهل داخل المجتمع يكون نتيجة عدم التعلم، وكثيرا هي الأسر الفقيرة خلال العصر الوسيط لم يسعفها الحظ في تعليم أبنائها وذلك لعدم قدرتها على توفير مصاريف التعلم.

وهناك صورة حية لابن مريم يورد لنا ما وقع للفقيه أحمد بن زكري في قوله "فكان في ابتداء أمره، صبيا يتيما أخذته أمه ليتعلم صنعة الحياكة وإذا بالولي الصالح عبد الرحمن بن زاغو أتى بغزل ينسجه فسمع الصبي أحمد بن زكري يغني فأعجبه صوته، فتمنى لو كان صاحب الصوت يقرأ، وعند خروج الصبي لشراء الطعمة لمعلمه رأى الشيخ في المسجد يقرئ الطلبة فدخل واجتمع مع الطلبة وعند انتهاء الشيخ من الدرس لم يفهم طلبته الدرس إلا أن أحمد بن زكري فهمه، وبعدها قام بشرحه للشيخ كما تلقاه منه أين زاد إعجابه به فسأله عن أبيه فقال له مات، وأمك؟ فقال حية، وما أجرتك في الطراز؟ قال له: نصف دينار في الشهر، قال له أنا أعطيك نصف دينار في كل شهر وأرجع يا ولدي تقرأ وسيكون لك شأن؛ ثم ذهب عند أمه وقال لها أنا أعطيكي أجرته في الطراز على أن نرده يقرأ؛ فقالت أو تنصفني فيه؟ قال نعم وأخرج النصف من جيبه ودفعه لها (المليتي،

2001، صفحة 100). وهي صورة ترسم لنا سلبية الفقر في عدم تمكن الصبيان من التعلم والذهاب إلى احتراف الصنعة أو الحرفة من أجل إعالة الأسرة.

فبالنسبة لكتلة العامة المهمشة سياسيا والمقلة اقتصاديا، لا يتوفر السواد الأعظم من أبنائها على الإمكانيات المالية لمتابعة التعليم وتحصيل العلم. لهذا يرد مصطلح العامي في المصادر التاريخية كمرادف للأمي أو الجاهل في مقابل الطالب. وحتى المتعلمين منهم يقتصر أغلبهم على حفظ القرآن فقط، ولا يتجاوزون مرحلة الكتاب. وفي البوادي حيث ينتشر الفقر بين الفلاحين، لا يكاد يتعلم من أبناء الرعية إلا نسبة قليلة مقارنة بأبناء المدينة الميسورين فقد أشادت الكثير من المصادر إلى تعلم أبناء بعض العائلات الميسورة.

وعليه فالتلازم بين الفقر والجهل يؤثر تأثيرا مباشرا ويؤدي إلى تخلف المجتمع، فالفقير الجائع ينشغل بسد جوعه متخليا عن شيء اسمه العلم وكسب المعارف.

2-4 أثره على الفكر والعقيدة:

لاشك أن الأزمة الاقتصادية من أخطر الآفات على العقيدة الدينية وبخاصة الفقر المدقع، الذي بجانبه ثراء فاحش، وبالأخص إذا كان الفقير هو الساعي الكادح، والمترف هو المتبطل القاعد. وهو ما لمحناه في مصنفات الفترة الوسيطية باشتغال السواد الأعظم من العوام لدى العائلات المترفة وما يلقونه من ممارسات دنيئة ضدهم، فان لم يكن الفقير قوي الإيمان، فقد يصيبه إحباط و شك مريب في حكمة الخالق، حينما يرى الغني المترف قاعدا والرزق يصله، في حين يرى نفسه رغم كده وجده في العمل إلا أنه دائما في خصاصة وحاجة. فهنا ينتابه الارتياب في عدالة التوزيع الإلاهي للرزق وفي هذا الصدد عبر أحد الشعراء في قوله:

كَمْ عَالِمِ عَالِم أَعْيَتْ مَذاَهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا

هَذَا الَّذِي تَرَكَ الأَلْبَاَبَ حَائِرَة ... وَصَيَرَ اَلعَالِمَ الَنَحْرِيرَ زِنْدِيقَا

(القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، 1985، صفحة 15)

وهذا التخمين العقدي الذي تولد عن الفقر، أدى ببعض السلف إلى القول: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك !! (القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، 1985، صفحة 14).

كما وردت أحاديث عن النبي في هذا الشأن تذم الفقر لخطره على عقيدة الإنسان ولا عجب أن يروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعيذ من شر الفقر في قوله "**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**" (الألباني، 1984، صفحة 10) ويقول "«***اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ***» (الألباني، 1984، صفحة 10).

الخاتمة:

وصفوة القول هو أن الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية شكلت هاجسا كبيرا لدى أفراد مجتمع المغرب الأوسط لما تركته من أثار وخيمة وأضرار جسيمة تجسدت في عدة نواحي منها: تأثيرها على البنيات الاجتماعية وعلى سلوك وذهنيات أفراد المجتمع، ولعل أخطر تأثير مسَّ الجانب الفكري والذي بدوره يؤثر على الجانب النفسي، فالفقير الذي لا يجد ما يأكله أو يلبسه لنفسه وأهله وولده، كيف يستطيع أن يفكر تفكيرا سليما، ويصبح رجل الغد والمستقبل. إلا أن في المقابل وطدت تلك الأزمات أواصر التضامن وجعلت النخبة السلطوية تمارس سيادتها على الإنسان والمجال، رغم القصور النسبي لدورها في تطويق أثار الأزمات.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم القادري بوتشيش. (2014). *المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي*. القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع.

2. إبراهيم القادري بوتيشيش. (1993). *المغرب والأندلس في عصر المرابطين -المجتمع، الذهنيات، الأولياء-*. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

3. ابن الخطيب ,ل .ا .(1956) .*أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام*) .ت .و . بروفنسال (.Trad ,بيروت :دار الكشوف.

4. ابن الزيات التادلي. (1997). *التشوف إلى رجال التصوف.* (تحقيق: أحمد التوفيق) الرباط: مطبعة النجاح الجديدة.

5. ابن السماك العاملي. (2010). *الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية.* (تحقيق: عبد القادر بوباية) لبنان: دار الكتب العلمية.

6. ابن بسام الشنتريني،. (1997). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، مج1 .* (تحقيق: إحسان عباس) لبنان: دار الثقافة.

7. ابن عذارى المراكشي. (1985). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين.* (تحقيق: ابراهيم الكتاني ومحمد ببن تاويت ومحمد زنيبر عبد القادر زمامة) بيروت: دار الغرب الاسلامي.

8. ابن مرزوق. (2008). *المناقب المرزوقية.* (تحقيق: سلوى الزاهري) الدار البيضاء: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح.

9. ابن منظور ,ج .ا .(s.d.) .*لسان العرب، ج .6* بيروت :دار صادر.

10.أبو عبد اللّه العبدري. (2005). *رحلة العبدري.* (تحقيق: علي إبراهيم كردي) دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع.

11.ابو عبد اللّه محمد بن أحمد ابن الشماع. (1984). *الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الدولة الحفصية،.* (تحقيق: الطاهر بن محمدالمعموري) الدار العربية للكتاب.

12.أبي زكرياء المغيلي المازوني. (2009). *الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4.* (تحقيق: مالك كرشوش، مختار حساني) الجزائر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

13.أحمد الزجالي القرطبي. (بلا تاريخ). *أمثال العوام في الأندلس، القسم2،.* (تحقيق: محمد بن شريفة) منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي.

14.الاشبيلي ,أ .م .(2007) .*الطب العربي في الأندلس -مقدمة لكتاب التيسير في المداواة والتدبير .-* الجزائر :دار ثالة.

15.الأندلسي ,ا .س .(1995) .*المغرب في حلى المغرب، ط .3*(تحقيق : ش. ضيف) .القاهرة :دار المعرف.

16.الحسن الوزان. (1983). *وصف افريقيا، ج2.* (ترجمة: الأخضر محمد وحجي محمد،) بيروت: دار الغرب الإسلامي.

17.القادري بوتيشش. (2013). *ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن الجاعات-المغرب والأندلس من القرن (6هـ-8هـ) نموذجا، مجلة عصور الجديدة، ع7-1433، 8-1434هـ.* وهران.

18.المازوني ,أ .ز .(2009) .*الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج .1* الجزائر :دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

19.المقريزي ,أ .ا .(2007) .*إغاثة الأمة بكشف الغمة،*) .تحقيق :ك .ح .فرحات (.القاهرة :عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

20.المليتي ,ا .م .(2001) .*البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان (*تحقيف: ع .ا .بوباية) .الجزائر : مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع.

21.حسين رشوان. (2002). *مشكلات المدينة ودراسة في علم الاجتماع الحضري*. الإسكندرية: المكتب العربي الحديث.

22.سعيد بن حمادة. (2007). *الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين (7-8هـ/13-14م)*. بيروت: دار الطليعة.

23.سمية مزدور. (2008). *المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط من القرن (6-10هـ/12-16م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة*. جامعة قسنطينة،.

24.صوفية السحيري بن حتيرة. (2008). *الجسد والمجتمع-دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد*. تونس: دار محمد علي للنشر.

25.عبد الرحمن ابن خلدون. (2012). *المقدمة*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

26.عبد العزيز الغريب. (2005). *الفقر في السعودية، قراءة في التدابير المتخذة، مجلة المسقبل العربي، العدد: 311* . مركز دراسات الوحدة العربية.

27.عبد الهادي البياض. (2008). *الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس من القرن 6-8هـ*. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

28.علي ماهر. (2003). *الخدمة الاجتماعية في مجال الدفاع الاجتماعي*. مصر: مكتبة زهراء الشرق.

29.فرانشيسكو فرانكو سانشت. (1994). *تطور الطب في الأندلس، المجلة العربية للثقافة، عدد27*. تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

30.فقادي ,ا .(1999) .*من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط، مجلة أمل -التاريخ الثقافة، المجتمع* . - الدار البيضاء :مطبعة النجاح الجديدة.

31.فوزية كررزا. (2015/2014). *عامة المغرب الأوسط في ظل السلطة الموحدية، اطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، غير منشورة* . جامعة وهران.

32.محمد استيتو. (2006م). *الفقراء في المغرب -نماذج من القرنين (16-17م)*. الدار البيضاء: منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة.

33.محمد الغزالي. (بلا تاريخ). *الإسلام والأوضاع الاقتصادية*. الجزائر: مكتبة أمزيان.

34.محمد القبلي. (1992). *" حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12-13 هـ"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ع/21-22* .

35.محمد حالي. (2013). *"الديمغرافيا التاريخية في العصر الوسيط"، مجلة المستقبل العربي، ع/416، .*

36.محمد حسن. (1999). *المدينة والبادية، ج2، .* تونس: جامعة تونس.

37.محمد فتحة. (2011). *الوباء الجارف بالغرب الإسلامي -معطيات ومواقف -"ضمن كتاب المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب*. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

38.محمد ناصر الدين الألباني. (1984). *تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام* . دمشق: المكتب الإسلامي.

39.نعيمة بوكرديمي. (2010). *الرحلة العلمية لعلماء تلمسان الى فاس -خلال القرن (8هـ/14م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط ، غير منشورة*. سيدي بلعباس.

40.نور الدين زرهوني. (بلا تاريخ). *الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن(6هـ)*. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

41.يوسف القرضاوي. (1985). *مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام*. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.